فصاح بالم :

ـ هل مات ؟!

اجابه رئيس الحرس بارتعاش :

ـ أجل يا مولاي لقد مات . انه قلبه .

فصاح بعصبية وقد لطم وجهه :

ـ كيف يموت ؟.. كيف ؟

فاجابه مؤدبه الفارسي بصوت هادىء عميق :

ـ كما تموت الشهب والعبقريات والازهار والحضارات ، وكما يموت البرق وكل شيء خارق للعادة ... ما يكاد يتوهج حتى يتلاشى .

وهنا استرد زارا بعض وعيه ، ونظر باستعطاف الى وجه مليتس وقال بصوت كأنه البكاء :

ـ هل حقيقة يا مليتس ان بشارا قد مات ؟

فاجابه مربيه اليوناني بألفاظ لها رنين النشوة :

ـ كلا يا مولاي . انه لم يمت . انظر أمامك .

ثم صمت قليلا وأشار بيده الى المدينة وقد ألهبت شمس الغروب رخامها ومرجها ، وتابع قائلا :

ـ هذا هو الامير بشار . »

ران على الجميع صمت عميق ، وكان شعور بالرهبة يجتاحنا جميعا ، ساعدت أشعة الغروب الملامسة لبقايا المباني والمرج على تعميقه في نفوسنا . وكان اية علي قد وصل بالتعابير المرتسمة على وجهه الى منتهى المرض وقد فاضت عيناه بالدموع . وكنت طوال اصغائنا أرقب تحول وجهه السريع . كنت أعرف بأنه يحترق من الداخل ، وان طاقة الحياة تتسرب من جوانبه شيئا بعد شيء . كنت أرتهب لمجرد همسة أسكبها في اذنه .

وعندما بدأ الحاضرون يتوجهون نحو السيارات ، قام اية علي وتوجه نحو الجهة المخالفة بدون ان ينتبه لوجودي قربه . ثم وقف مستندا على أحد الاعمدة الرخامية ، وشمل المرج بنظرة كليلة ، ثم استدار نحو العمود ، ووضع شفتيه على الرخام البارد ، وظل يضغط عليه .. الى ان سقط على الارض . ولما انحنيت فوقه لاعينه على الوقوف ، كانت روحه قد فاضت من جسده .

وركض معظم الموجودين الى حيث كانت جثة اية علي مسجاة فوق الحشائش الخضراء ، وأخذوا يهمهمون وينهامسون باطلاق تعابير الاسى والحزن . وصاحت احدى السيدات المسنات ، وكانت زوجة أحد علماء الآثار الانكليز : « انها مشؤومة هذه المدينة ، لقد بدأت لعنتها تحل علينا » . كان الذعر قد ارتسم على معظم الوجوه . أما أنا فلم أعد أشعر بشيء ، وأحسست بانطفاء شامل يأتي على قواي . ولما حملت الجثة الى السيارة ، كنت أتمنى شيئا واحدا ، هو أن توارى جثة اية علي تراب المرج النضير .

***

عندما عدت الى مدينتي ، بدأ الشعور بالفاجعة مع مرور الايام يخف في نفسي شيئا بعد شيء . وذات يوم خريفي كئيب الضحى ، كنت أمر صدفة من امام مدخل المتحف الوطني عندما استوقفني منظر تمثال الالهة أثينا المنحوت من الحجر الاسود ، فأخذت انظر اليه بينما تجمعت في ذهني تعابير وحركات اية علي يوم انفجر ضاحكا امام هذا التمثال ، وأخذت ضحكاته الصافية ترن في اذني ، وتعبر مخيلتي كأمواج من نور . ولم يلبث الرنين المتماوج ان تجمد خلف جبهتي واستحال الى صورتي زارا وبشار . وعلى الفور تابعت طريقي وقد انبعث من وهج الصورتين سؤال مفاجيء اخذ يحفر ذهني : ترى من كان اية علي ؟ هل كان الامير بشار ؟ أم كان الامير زارا ؟

وما زال هذا السؤال يتردد في خاطري الى اليوم .

دمشق : **انور قصيباتي**

النهر

انا في انتظار الغائبين ، والف نائحة امامي
وجهي على شفة الزجاج ووجه امي في الظلام
وربيعك الفضي ، ملء يد النعاس ، بلا لثام
والماء يهرب من يدي كشعرك العبق الزؤام
عين تثلج ماؤها الذهبي ملء يدي وجامي

مدن وراء زجاجنا المائي يلهثن انبهارا
ويد كماء الحلم دافئة كانفاس العذارى
وحدائق من زرقة الامطار اغرقت النهارا
كنا عرايا ابرياء وكان كل دمي اخضرارا

... .

اغرقت روحي في اصفرار يديك عمرا من ظلال
حجر تهشم قرب مرآة ، واشرعة انخذال
الموج عاد بها هشيما دون مرفئها المحال
لمح على الصحراء من عدن توهج ثم زال
بيني وبين عيونك الزرقاء عمر من ظلال

يا رعشة كالصوت يلتمس الطريق الى الشفاه
يا صوتنا المنسي يا نهرا جفتنا مقلتاه
كانت لنا سفن واشرعة ولمح من سناه

... .

يا رعشة زرقاء يا طعم الندى يا منتهاه

نهر رمادي يسيل على شفاه من غناء
عيناه اقمار اخضرار طفولة وظلال ماء
ورؤى فوانيس وهمس مجارش واسى ثغاء
يا سمرة الصفصاف يا نهرا رمادي النداء
ضعنا وضيعناه في صحراء ملح وانطفاء

موسكو ـ **حسب الشيخ جعفر**